القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

معرض المذاهب السياسية

الفاشستية والنازية والكمالية

في وصف «الفاشستية» الايطالية ما يغني القارىء عن ذكر «النازية» الالمانية لان هذه نسخة منقولة عن تلك بشيء من التصرف تقتضيه ذهنية الالمان وتربيتهم والاحوال التي طرأت على بلادهم ، فمن ذلك مثلاً ان (هتلر) زعيم النازي مع كل ما اقدم عليه من الضغط على خصومه والتهجم على حريتهم الشخصية خصوصاً الشيوعيين منهم كان بالاجمال أبعد عن العنف واتخاذ الشدة من زميله (موسوليني) زعيم الفاشستي الأمر مع اليهود ، وهذه الشدة معهم ناشئة من اعتقاد الوطنيين الالمان الراسخ بان اليهود كانوا اصل بلائهم في الحرب العالمية ومصدر نكبة المانيا في اوصابها الحاضرة وسبب تفسخ امتها من جراء انتشار العقائد اللاوطنية اليهودية بينهم كالماركسية وغيرها وان الاختبار دلهم في بلادهم وفي غيرها على ان اليهودي يهودي قبل كل شيء مهما تغيرت الاحوال وتبدلت الاوضاع

ثم هنالك فرق جوهري في التطبيق وهو ان الفاشستية تطبق في بلاد غالبة تتمتع بحريتها التامة، فموسوليني زعيم مطلق التصرف مثل زميله مصطفى كمال ، في حين تحاط النازية بالدول الغالبة التي تهددها بالتدخل في شؤونها في كل حين لاعذار مختلفة فتضيف الى عبء خصوم (هتلر) الداخليين عبء العداوة الخارجية الثقيل ، لكن النشاط الذي أبداه (هتلر) في الداخل والحزم الذي تذرع به في الخارج عادا عليه باجتماع كلمة الالمان حوله وتراجع الدول الغالبة عن خططها التهديدية لاذلال المانيا ، فبعد ذلك التفسخ والخضوع والرضى بالمعاهدات الجائرة قامت المانيا النازية تطالب بحقها في الحياة والجلوس على المائدة الدولية على مستوى الدول المعظمة الأخرى

﴿ الفاشستية ﴾ : لقد خرجت ايطاليا من الحرب العالمية مثل سائر الدول المحاربة منهوكة القوى تتهددها الثورات وتفت في ساعدها الانقسامات الحزبية واعظم خطر احاق بها خطر الشيوعية

حتى ان الشيوعيين حاولوا في تلك الايام تطبيق المنهاج الشيوعي في (بولونيا) احدى مقاطعاتهم. وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٢٠ حلّ السنيور (جيرلتي) محل السنيور (نتي) في رياسة الوزارة فقام بشيء من التجارب الاشتراكية في المملكة ولكن ذلك لم يخفف من حماسة الشيوعيين بل زادهم طمعاً فقاموا بثورات عنيفة في سنة ١٩٢١ في انحاء البلاد مما احدث رد فعل شديد في العناصر الوطنية التي نشأت على احترام (غاريبالدي) و (كافور) وغيرهما من مؤسسي ايطاليا الحديثة ووحدتها الوطنية السياسية، ولا سيما بين الطبقات الرأسمالية التي تحترم قاعدة التملك الخاص وتعدها الباعث على الانتعاش والارتقاء. فتألف من هؤلاء جمعية باسم «الفاشستي» رمزها ارتداء القمصان السود ودينها الوطنية وديدنها مصارعة الاشتراكية فسلكت سبيل العنف والشدة مع الخصوم ورأت خير زعيم لتنفيذ رغائبها السنيور (بنيتو موسوليني) الصحفي الراديكالي سابقاً فوكلته قيادها فساقها الى الامام بحزم وعزم ومهارة قادرة حتى قضى على الشيوعيين وعلى اعمالهم العنيفة — ولو موقتاً — بسرعة فائقة وقبض على الاحرار المخالفين من زعماء وكتّاب والقاهم في غياهب السجن. وتمكن من انقاذ البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها، وزاد في نجاحه ما اظهره الزعماء الاشتراكيون من الصفات الصبيانية والتقلقل المعيب والجبن الذي نهك قواهم، ومن الطرق المستغربة التي سلكها في إسكات المنتقدين ومضايقتهم تبليعهم جرعاً كبيرة من زيت الخروع. وصار القتل والضرب والتعذيب وحرق الاملاك الخاصة كما قال (آش. جي. ولز) من الوسائل الادارية في ايطاليا لكبح جماح الاحرار والقضاء على مذاهبهم «فزال شبح الشيوعية وحلّ محله حكم السلاّمين النهّابين»[1]

ولما اشتدت شوكة الفاشستيين وتأيد سلطانهم وصار لهم جيش نظامي يعتمد عليه زحفوا في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٢ على رومية لاحتلالها فتنزعت الوزارة (وزارة السنيور فاكتا) لملاقاتهم في الميدان واعلنت الاحكام العرفية وعرضت على الملك الخطط التي تذرعت بها ولكن الملك بدلاً من اقرارها على ذلك دعا اليه (موسوليني) لتولي زمام الأمر فتولاه وقبض بيد من حديد على شؤون الدولة ومرافقها ومصادر قوتها حتى دان له الشعب، ومما فعله في هذا الباب انه قضى على حرية الصحافة وجعل الانتخاب لمجلس النواب بمهزلة تشبه مهزلة المجلس الوطني الكبير في انقره، وما فتىء يلقي خصومه السياسيين في اعماق السجون ويأخذهم بالشدة ويقابلهم بالهول حتى قضى عليهم قضاء مبرماً واصبح الآمر الناهي في طول البلاد وعرضها. وكلة «الدكتاتور» — وهي اللقب الذي يطلق عليه — تعني في معجم السياسة الحاضرة الجبّار القاهر

ومما تحسن الاشارة اليه ان «الدكتاتور» ما تربع على دست الوزارة حتى استقر البرلمان وحمل

(١) Outline of History, p. 682

على النظم الديموقراطية ولم يذكر الجمهورية التي كان يتغنى بها بكلمة واحدة . ومما جاء في احدى خطبه يومئذٍ قوله: «ان جميع المشاكل المتعلقة بالحياة الايطالية قد وجد لها الحل على الورق ولكن الحزم اللازم لوضعها موضع التنفيذ كان مفقوداً فعمل الحكومة الفاشستية ان تمثل هذا الحزم وهذه الارادة التي لا مردّ لها . والواجب ان تكون القواعد الكبرى في سياستنا الداخلية الاقتصاد والعمل والتدريب» (١)

وقد أتى ظهور الفاشستية في ايطاليا والنازية في المانيا (والكمالية في تركيا) برهاناً آخر على صحة مذهب ارسطو من ان الفوضى تؤدي الى الحكم القاهر . فالفوضى التي منيت بها ايطاليا عقب الحرب العالمية خلقت موسوليني وجعلته رجل الساعة خصوصاً لأن زعماء الاشتراكيين الطليان على ذاك العهد كانوا ثرثارين — يكثرون من الكلام ولا يكادون يعملون شيئاً ، وكل حزب يجعل همّه الهدم بمعاول النقد المجرّد من الاعمال الايجابية البنائية يستطيع ان يشل يد الحكومة ولكنهُ عاجز عن الجلوس على منصتها وهذا ما يمهد السبيل الى يد القاهر الحازمة التي تنقذ الموقف . وكان الاشتراكيون في حيص بيص لم يرضوا بالطريقة القديمة من جهة ولكنهم مع عطفهم الشديد على روسيا لم يجرؤوا على اعلان الشيوعية من جهة اخرى ، فادّى هذا التقلقل في موقفهم الى الاستياء العام والى اختناق الطريقة البرلمانية وما فيها من اخذ ورد على غير طائل والى رفع الثقة من الاشتراكية ومن انصارها ومن الحزب الكاثوليكي واعوانه مما عبّد الطريق امام (الدكتور) وجيشه اللجب من الرجال الناقمين وفتح ابواب رومية اليد القادرة والادارة الحازمة . ولم يمضِ زمن طويل حتى انضمّ الملك نفسه اليها ودخل تحت لوائها. ستّة في سياسة الامم حكم بها الدهر اليد القادرة منذ فجر التاريخ ولن تجد لهذه السنة تبديلاً

تشترك الفاشستية الايطالية ومعها النازية الالمانية — والكمالية الى مدى بعيد — من جهة والشيوعية الروسية من جهة اخرى في الشؤون الآتية :

(اولاً) اصرارها كلتيهما على ان الوطنية الصحيحة هي عمل ايجابي لا اهمال سلبي ، فموقف المتفرجين غير المبالين موقف لا يليق بالمجتمع السليم ولا بنظرية الجماعة المسؤولة ، والبيت الذي لا يكترث اهله لترتيبه ونظامه بيت محكوم عليه بالفوضى والانهدام

(ثانياً) الشد بخناق جميع العناصر العدائية والآراء المخالفة والسعي في حرمانها من الاشتراك في ادارة الدولة وسد المنافس دون افصاحها عن آرائها وبث دعايتها

(ثالثاً) رغبتهما كلتيهما في ضم جميع المتحدات الاختيارية الحرة وسائر انواع الحياة المشتركة تحت لواء الدولة السامي

(رابعاً) عزمهما على تحويل الاشتراكية الوطنية في ايطاليا والمانيا وتركيا والاشتراكية

(١) These Eventful Years, p. 655

الشيوعية في روسيا اليد العليا في تعيين السياسة الواجبة الاتباع ذاكراً ما كان اسمها

ولئن تماثلت الشيوعية والفاشستية في الطرائق الموصلة هذا التماثل الشديد فالغايات مختلفة كل الاختلاف ، ذلك لان الاساس الذي يبنى عليه العمل في الشيوعية الماركسية هو الطبقة فعلى الطبقة وما فيها من قوة حافزة وما لها من مصلحة ملحة يجب ان يبنى المجتمع الجديد واما في الفاشستية واضرابها فقطب الدائرة هو الامة ، وان غاية السياسة جعل الامة عظيمة متمتعة بحقوقها رافلة بحلل السعادة ، وايجاد الفسان السياسي او الاداة السياسية التي تصرعن الحياة الوطنية كاملة ، وهكذا نجد النظريتين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الوطنية على طرفي نقيض ، ويزيد في هذا التباين وما يجر اليه من تنازع جوهري ان الوطنية في نظر الفاشستي لم تعد شيئاً يظفر به الوطنيون بالانتصار على عدو اجنبي ظالم بل هي شيء راهن حاصل في اليد شكلاً ولكنه يحتاج الى من ينفخ فيه روحاً ويكسوه لحماً ويحميه من مجازر الاشتراكية وغارات « الدولية »

ولم تكن الفاشستية في اول عهدها نظرية علمية او منهاجاً سياسياً بقدر ما كانت دعوة الى العمل وسعياً لانقاذ الوطن من التفتت والانحلال ، ويمكن وضع تعريف لها بسرد ما تضمنته من الكلمات او المصطلحات الدالة على الكراهة والبغض اكثر مما فيها من التعاليم والآراء اللهم الا ما دعت اليه من وطنية بحتة وانها رسالة جذابة للشبيبة الحديث وانها التفتت الى العمل واعتدت به واهملت شأن النظر : وقد ابغضت الشيوعية ونفرت من « الدولية » على اشكالها ومن الحروب بين الطبقات وحملت على الطريقة البارلمانية حملة شعواء وحكمت عليها بانها سبب الخيبة وسوء الادارة في ايطاليا — يشاطرها هذا الرأي كل من تتبع سير البرلمانات في جميع البلدان التي لم يستعد اهلها للحكم الديموقراطي ، بل ان هذا الشكل في الحكم يلاقي خصوماً الداء حتى في ارقى البلدان

وتقوم الفاشستية من الاساس على فكرة ان الامة هي الوجود الاخلاقي الذي ما بعده وجود ، وان الواجب على الجميع ان يخضعوا لها ويلتحقوا بها ويسعوا الى تحقيق ذاتهم وما تتطلبهُ تقومهم ضمنها وبواسطتها . وعلى الناس نحو الامة واجبات ولكن ليس على الامة من واجب ، وقد تتعامل بالامم الاخرى بمعاملات سلمية حبية او حربية عدائية ولكنها لا تعترف بتفوق احد عليها او بخضوعها للاسرة الدولية التي هي عضو من اعضائها . وتسعى بروح تحاكي روح (فردريخ نيتشه) الفيلسوف الالماني لتصير القوة الى التوسع والانبساط والتعلي بحيث لا يكون السلم العالمي العام متوقفاً على شيء يعارض طموحها . فالامة عند القائلين بهذا المذهب هي الوجود الشامل والسياسة هي تحقيق المطالب الوطنية . ونسارع القول اننا في شرح الفاشستية والاشارة الى زميلتها النازية والكمالية نشعر كأننا نشرح نظرية (هيجل) في

تقديس الدولة وجعل الوطن سر الاسرار ومجلى الانوار

وتجد هذه الطرائق الثلاث الفضائل العسكرية ، وفي سياستها قمة حربية مستمرة ، واذا كان هتلر في خطابه السياسي الذي سبق المؤتمر الاقتصادي العالمي قد تجنب اضطراراً ذكر الفتوحات والبسطة السياسية ومصطفى كمال حاول الظهور بمظهر المكتفي بتركيا في حدودها الحاضرة فان الفاشستية عند مؤسسيها تعني التوسع السياسي في الخارج صراحة ؛ وقد يعميها هذا الميل الاستعماري عن مصالحها الحقيقية ويحملها على البذل الغالي في المال والسمعة والرجال في سبيل بلاد قاحلة قليلة الانتاج مثل طرابلس الغرب وبرقه ، بل انها لم تتورع هناك ان تسود صحيفتها فتقتل شيخاً طاعناً في السن من كبار المجاهدين مثل عمر المختار للارهاب العسكري . على ان نظرة سياسية صادقة فيما لها من المصالح في الشرق تدعوها الى جعل شاطىء الصحراء الليبية الخاوية على عروشها مكاناً تنجب الى سكانه فتسخطهم من العطايا السياسية ما يبث لها دعاية في شمال افريقية تزعزع بها اعظم دولة حربية تهددها وتهدد غيرها من الدول «بالامبراطورية السوداء» التي تحلم بتأسيسها في افريقية . قال السنيور (نيتي) رئيس وزرائهم المشهور «ان ليبيا — يعني طرابلس وبرقة — هي المستعمرة التي كلفت ايطاليا اعظم البذل ، ومع كل هذه الحروب المديدة التي خضنا معاركها هناك والنفقات الباهظة التي انفقناها فالظاهر انها محكوم عليها ان تبقى عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة وسبباً مستمراً للقلق واشتغال البال[1]»

ان مثل هذه الذهنية الهجومية الدفاعية تحتم على ايطاليا ان تفكر في الحرب وتعدها في حيز الامكان دائماً ، فلا يجوز للايطاليين والحالة هذه ان يستكينوا للسلم او يستسلموا له حتى لو كانوا ينوون الدفاع عنه

وتعني الوطنية عدا ذلك الارتكاز في الداخل فيجب تنظيم حياة المجتمع الايطالي وضمه حول دولة الامة . ولا يسمح لاية اداة من ادوات العمل او الكلام ان تعيش في المجتمع الايطالي ما لم توطد العزم على احناء الرأس امام الفكرة الوطنية وان تقوم بالقسط المتوجب عليها في تحقيقها . ويتناول هذا الموقف ابادة حركة العمال خاصة والقضاء عليها سواء بالشكل الذي اتخذته في ايطاليا ام في غيرها ، لان طبقة العمال كطبقة الرأسماليين تتشابه في الاقطار الصناعية وتتخذ شكلاً واحداً ، وهي من الاساس مشربة بالفكرة الدولية فالمتحدات التجارية والاحزاب الاشتراكية كلتاهما سواسية فيما لها من التآخي الدولي والخضوع لفكرة التعاضد بين افراد الطبقة الواحدة في الدول المتعددة ، لذلك يتحتم على الفاشستية ان تجتث هذه المجموعات من اصولها ، ولكن لا تتوصل الى ذلك ما لم يكن عندها ما يحل محلها ، ذلك لان المجتمع

(١) These Eventful Years, I. p. 636.

الحاضر يجب ان يزوّد بهيئات منظمة تفصح عن حاجات العمال ومطالبها العادلة، وما لم يعترف بهذه الحاجات ويسلم بحقها فانها تتخذ شكلاً معادياً لمصالح الذين يريدون القضاء عليها . وفي الحق ان الفاشستية ما كانت لتستطيع الثبات وهي تحارب الاشتراكية هذه المحاربة القاسية لو لم تلتفت الى مصالح العمال الاساسية وتحول دون تدفق تلك الاجور الباهظة او الارباح الغزيرة الى جيوب بعض الطفيليات في المجتمع الايطالي

لاجرم ان الفاشستية بقضائها على طبقة العمال في ايطاليا اخذت في احلال نظام جديد محلها على الشكل الفاشستي ، فبدلاً من المتحدات التجارية الاشتراكية قامت متحدات فاشستية يديرها الانصار المقربون ولا يدخلها احد من اهل الخبث والعند . وخولت هذه المتحدات قوة عظيمة منها الحق في ضرب الاعانات على الاعضاء وغير الاعضاء وان تساوم هي وحدها المخدومين وان تنضم الى جمعياتهم فيتألف من المجموع — الخادمين والمخدومين — نقابة رسمية للاشراف على كل خدمة وكل صناعة برمتها، وان تجعل هذه المتحدات الفاشستية دوائر انتخابية بدلاً من الدوائر الجغرافية القديمة فينتاب منها الاعضاء للمجلس التشريعي الفاشستي الجديد

وتعارى القول ان الفاشستية بنت لكل جمعية حرة اساساً فاشستياً تقوم عليه وجعلتها اداة حكومية وحرصت على ان تكون ادارتها بيد الحزب الفاشستي وانصارها ؛ وليس من السهل ابداً ان نعرف مقدار استيلائها على طبقة العمال الايطاليين ودرجة اسمالهم الى جانبها ذلك لان الفاشستية وزميلتها النازية والكمالية هي مثل الشيوعية الحمراء تكم افواه المعارضين ولا تسمح لاحد بالتلفظ بما يخالفها ، لكنها على كل حال لقد صمدت حتى الآن وحالت دون تجدد الاتصال بين العمال الايطاليين وبين حركة العمال المنظمة في الاقطار الاخرى وساعدها على ذلك معالجتها الناجعة لبعض شرور الرأسمالية وتخفيفها وطأة البطالة التي تئن منها الدول الاخرى

ولا تعد الدولة الفاشستية دولة مؤلفة من افراد بقدر ما هي مؤلفة من نقابات متنوعة تختلف باختلاف العمل الذي تقوم به ويتصل الفرد فيها بالدولة بواسطة النقابة التي ينتمي اليها، فالحكومة بهذا المعنى هي الرأس والنقابات — لا الافراد — هي الاعضاء ، ويطلق على هذا الوضع السياسي الحديث اسم «الحكومة النقابية او الدولة المندمجة Corporate » ، ويختلف في الفاشستية عنه في غيرها ان النقابة فيها خاضعة للدولة ومسخرة لاغراضها تسخيراً تاماً ، ذلك لأن الوطن الايطالي هو «العلي الاعلى» في حين تمنح النقابات في المناهج الاشتراكية استقلالاً كما هو الحال في المتحدات التي تدعى (جيلد) و (سنديكا) وغيرها من الانظمة التي تهتم بالحرية اكثر من اهتمامها بالخضوع والانقياد . اما الفاشستية فتسير على مذهب (هيجل) مؤسس الامبراطورية الجرمانية من حيث اهتمامها بالطاعة وتفضيلها النظام والتدريب ، وهي تدعو افراد الرعية ان يحققوا حريتهم في حرية الدولة اكثر مما يحققونها في فرديتهم او في مجتمعهم النقابي